الرسول الرحمة والحج نموذجاً

محسن الأسدي

قضت إرادة الله تعالى وحكمته سبحانه أن يبعث محمد بن عبد الله ﷺ رسولاً ونبياً في أمة عشعشت في مفاصلها فوضىٰ جاهلية جهلاء ، وفي عهد عـمّت فـيه ضلالة عمياء ، وفي زمن كانت دنياه تموج بآلهة عديدة وأرباب متفرقة تعبد عـبر شركٍ مقيت وعبودية ذليلة و ظـلم صـارخ وتخـلف وانحـدار في ظـلمات قـاتلة للأرواح كما للقلوب والمشاعر لما يترتب عليها من بعد عن ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ .

خصوصاً بعد أن استولى عمرو بن لحي على مكة وما والاهـا واسـتطاع أن يشيع الوثنية بين أهل مكة والقبائل حولهـا عبر عبادة الأصنام التي جاءهم بهـا ، وهو بعمله هذا بدّل ديانة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام التوحيدية الخالصة لله وحده ، والتي كان أهل الجزيرة العربية ومن حولها يدينون بهـا ، وعلى إثـر ذلك التـبديل تكاثرت الآلهة فنشر الشرك بين أهل مكة وخارجها ، حيث كـان أهـل الحـجاز يستمعون إلى أهل مكة ويتبعون ما يرونه ويعتقدونه ، لأنهم أهل الحـرم المـبارك والبيت الكريم وولاته وسدنته والقائمون على شؤونه ، فانتشرت الوثنية في هـذه البلاد ، واستتبع ذلك تفشي الانحرافات العبادية والخرافات الديـنية والأمـراض

الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية ، وتجذر الجهل والتسلط والاستغلال والظلم والتعسف .. وجميعها وجدت مكاناً لها بين طبقات مجتمعهم وأبنائهم ، ثم انتقلت إلى أجيالهم وأعقابهم ..

﴿ .. إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ...﴾[1].

فترك كل هذا وغيره بدوره آثاره السيئة على مجمل حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الأخلاقية والنفسية ...

فأخلاقياً واجتماعياً ـ وإن حافظوا على جملة من الأخلاق التي تميزوا بها عن الآخرين كالوفاء بالعهد والكرم وعزة النفس والمروءة والشجاعة .. امتلأت بها قصائدهم ونواديهم فخراً وزهواً ـ كان فيهم ما ينكره العقل السليم وما يقشعرّ منه الخلق السليم والأدب القويم، فقد كانوا يرتكبون الخطايا ويردون مجالس اللهو والطرب، ويمارسون الرذيلة بأنواعها كالزنا، حتى لم تعد المرأة عندهم إلا سلعة مهينة معاملة ومعاشرة ونكاحاً وطلاقاً وإرثاً ، ويدمنون على تعاطي الخمرة في بيوتهم ومجالسهم .. والجهل يستمرئونه، ويحتكمون إلى ما ورثوه من عادات وتقاليد وإن فسدت ..

وهناك ظاهرتان مؤلمتان ، فقد كان فيهم أناس يئدون البنات خشية العار وسبيهنّ ، ويرون في وجودهن والإبقاء عليهن ذلة لهم .. ويقتلون الأولاد خوف الفقر والفاقة والافتقار.. وقد حكى لنا القرآن الكريم هاتين الظاهرتين :

﴿وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[2]

(١) الزخرف: ٢٢.

(٢) النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

﴿وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَوْلاٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّٰاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْأً كَبِيراً﴾[1].

وأما ثروتهم فقد استأثر بها فريق دون الآخرين، راح يملك الأسواق والأنشطة التجارية والنواحي الاقتصادية في الحجاز وبالذات في مكة، وكان صناديد قريش هم المتحكمون بهذه النواحي وتلك الأنشطة، وكانت مكة مركز البيت الحرام والعبادات خالصة لهم لا يستطيع أحد ـ مهما تمكن واقتدر ـ أن ينازعهم سلطانهم هذا. وبجانب هذه الطبقة هناك طبقة متوسطة الحال وأخرى سيطر عليها الفقر والحرمان، وهناك الرقيق أيضاً، وهم يشكلون ظاهرة واسعة وقد أسقط الكبار الظالمون المتعجرفون كل حقوق هذه الطبقة في الحياة المناسبة، وجعلوهم يعيشون بين تلك الطبقات الثلاث عيشةً ذليلة يستخدمونهم أبشع استخدام خَدَمَة وعمالاً وأجراً ...

وكانت القبائل العربية مفكّكة الأوصال، تغلب عليها الأنانية وحب الذات..

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً!

والنزعة القبلية والطبيعة العنصرية متفشية فيهم..

وهل أنا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد؟!

وكان ديدنهم القتل والغزو والسلب، يُغير بعضهم على بعض، فيقتل قويهم ضعيفهم ويسبي، وكانت الحروب تطحنهم ويتقاتلون فيها قتال ذئاب مسعورة لأتفه الأسباب..، وحتى تضع الحرب أوزارها يحتاجون لسنين طويلة جداً.. ولم يكن لهم من يعودون إليه من زعيم يلوذون به أو مرجع يلجئون إليه أو دولة قوية يركنون إليها وقت الشدائد لتحلّ مشاكلهم ويرضخوا لحكمها فيهم، وتدعم وحدتهم وتدافع عن استقلالهم ومكانتهم.. فتوالت فيها حروب طاحنة ومعارك

(١) الإسراء: ٣١.

دامية تذكيها الأحقاد والضغائن وتقودها ثارات قبلية ونعرات عصبية ، حتى غدت أمة سيوفٍ مشهورة ورماح مشرعة ودماء نازفة وأعضاء مقطعة وأرامل ، وأمهات ثكلى ، وأطفال يتامى .. ونكبات وآلام ..

أمة كانت تتقاتل بسبب جَمَل يملكه ضيف إحدى القبائل اقتحم مراعي قبيلة أخرى ، أو ناقة قتلت ، فما كان منهم إلا أن يدخلوا حرباً ضروساً و يتقاتلوا أربعين سنة تفيض فيها أرواح ودماء سبعين ألف إنسان من كلا القبيلتين : بكر وتغلب وحلفائهما ، حتى كادوا ليفنوا عن آخرهم . إنها حرب البسوس تلك المرأة التميمية التي علا صراخها .. واذلاه .. فكانت الحرب ووقع القتال وزهقت الأنفس وسبيت الأمة ودمرت الحياة ...

وهناك أمة أخرى لا تقل تمزقاً وفرقة وتشتتاً عن تلك الأمة ، إنها قبيلتا الأوس والخزرج ، وقد سجل لنا التاريخ أياماً مريرة كانت بينهم:

فبعد أول يوم فتنة وقع بينهما (حرب سمير) وانضمّت كل بطون القبيلتين إليها واقتتلوا فيها عبر جولتين شرستين قتالاً شديداً ، توالت أيامهم القاسية الأخرى:

يوم الرحابة ، ويوم السرارة ، ويوم الحصين ، ويوم فارع ، ويوم الحسر الذي لم تنفع فيه تلك الجهود الكبيرة للإصلاح من قبل رجلين فزاريين بعد أن شاهدا من قتالهم ما آيسا معه من الإصلاح بينهم .. ويوم الربيع وهو حائط في ناحية السفح اقتتلوا فيه قتالاً شديداً حتى كاد يفني بعضهم بعضاً وقد انهزم فيها الأوس ولم ينفعهم فرارهم ، فقد تبعهم الخزرج حتى بلغوا دورهم لينزلوا بهم أشد العذاب قتلاً وتدميراً .. ويوم البقيع وفيه رجحت كفة القتال لصالح الأوس .. ويوم الفجار الأول وقد اصطبغت فيه ساحة المعركة بالدم الأحمر ، هدف كلٍ من المتقاتلين إفناء الآخر .. ويوم معبس أقاموا فيها أياماً يخوضون قتالاً عنيفاً ضارياً فانهزمت الأوس هزيمة قبيحة حتى لاذت ببيوتها وآكامها .. ويوم الفجار الثاني وقد اتحدت به الأوس واليهود قريظة والنضير ضد الخزرج ... وبغاث كان يوم حرب ضروس فرّ فيها الأوس أمام الخزرج قبل أن تدور الدائرة على الخزرج

حتى علا الصياح: «يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب: أي اليهود ..» إلا أن غضب الأوس لم يهدأ حتّى أضرموا النّار اللاهبة في دور الخزرجيين ونخيلهم .. إنها أيّام عصيبة وحروب رهيبة قد كادت تفني القبيلتين وتهلك الحيين ولم يشفع أنهما ينتميان لأب واحد وأم واحدة، ولم تقف الحرب وتنته بل ظلت سجالاً فما أن تضع واحدة أوزارها حتى تبدأ أخرى أشد منها عنفاً وضراوة ونزفاً ..

وأما المستوى الاقتصادي، فوضعهم فيه ليس بأقل سوءاً من أوضاعهم السابقة؛ فقد تأثر بأحوالهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.. وبانعدام الثقة والأمن والسلامة الاقتصادية والوعي بالأحكام والقوانين .. ولأنهم كانوا أبعد الأمم عن ذلك وعن نواحي التنمية كالصناعة لغلبة البداوة عليهم، وعن الزراعة وإن وجد شيء منها في بعض الأماكن عندهم وراجت التجارة في الأشهر الحرم، إلا أن الحروب الطاحنة والإغارات المستمرة وما يستتبعها من السلب والنهب كانت تلقي بظلالها القاتلة على أيّ مظهر من مظاهر التنمية .. فساد الاستغلال والتسلط ثم الفقر والجوع والعوز والتخلف الاقتصادي ..

كل هذا وغيره مظاهر تنخر في بنية مجتمع الحجاز وكيانهم وتسيء إليهم حتى غدوا في الحضيض الأسفل من الضعف والعماية والتخلف .. هذا أخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً.

وأما سياسياً فلا شك في تبعية الوضع السياسي لوضعهم الاجتماعي الرديء والأخلاقي الوضيع والاقتصادي الظالم، إلا أنهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال النسبي إذا ما قيست حياتهم السياسية بما عليه جيرانهم والمتاخمون لدول كبيرة تحيطهم، التي كانت حياتهم أقرب للعبودية لغيرهم بل العبودية بعينها غالباً، فقد حكم الفرس العراق، وغلبت الروم على بلاد الشام، والأحباش على اليمن .. وعاشت هذه البلدان انحطاطاً مقيتاً، وموورست مع أهلها ألوان مختلفة من الظلم والاستبداد والقهر والإذلال، لأن هذه الدول الكبرى المتسلطة يومذاك

كانت ترى العرب عبيداً همجيين لا حضارة لهم ولا مدنية عندهم، وبالتالي لا يستحقون الحياة العزيزة الكريمة ، وإلا أن يكونوا تابعين ..

لقد كان ذلك الواقع المتخلّف والفاسد والضعيف تحيط به حضارتان عظيمتان ودولتان كبيرتان: دولة الفرس ودولة الروم ، ويهود وغيرهم هنا وهناك، وجميعهم يحلّون ما حرم الله تعالى ويحرمون ما أحل، وصدّهم عن سبيل الهدى ترف حكامهم وتسلطهم وكان لدياناتهم المنحرفة أثر واضح على معالم حياتهم .. وغدت شعوبهم بسبب ذلك تتخبط في حيرتها وشقائها وسط مدنيات مزيفة، قوامها أسس مادية فقط بعيدة عن الروح ، ودون أن يكون لها أي تعلق بنور الوحي الإلهي، إلا بقايا أهل الكتاب تتمثل في أفراد أبت أن تنزلق في أوحال الشرك والجاهلية ، وظلّت ثابتة على منهج التوحيد منتظرةً خروج نبي جديد بشرت به كتبهم وأنبياؤهم، وتعلقت به نفوسهم وآمالهم ..

هناك حكم عديدة تصلح أن تسجل لنا أموراً وتجيب عن تساؤلاتنا حول سبب اختيار هذه الأمة دون غيرها من الأمم لأعظم رسالة حملها رسول الله محمدﷺ فإضافة الى أنها أمة توسطت الدنيا موقعاً فنورها يمكنه أن يعم الجميع ويصل إليه.. حيث إن موقعهم الجغرافي المتميز بين دول العالم سهّل انطلاق الرسالة إلى جميع الشعوب والدول المحيطة.

وأنها ظلت ملاذاً ومكاناً لعدد من الأنبياء والرسل والرسالات وأصحابها، فإن التدبر والتأمّل في تلك المرحلة قبل البعثة النبوية الشريفة يضعنا أمام واقعين مختلفين أو حالتين مختلفتين:

واقع الأمة المختارة لحمل الرسالة السماوية الخاتمة.

وواقع الأمم الأخرى من غيرها.

وبمعرفة هذين الواقعين يمكننا أن نستخلص أسباباً أو حكماً أخرى تصلح لأن تكون مبرراً لاصطفاء هذه الأمة لأمر عظيم يتمثل بتشرفها بحمل الأمانة الربانية العظيمة، وبالتالي هداية المجتمع الإنساني إلى أكمل الدين وأعظم الرشد وأبين الهدى وأتم النعم.. ولتكون معجزة الرسالة والنبوة التي ضمّها القرآن الكريم وتوفرت عليه شرائع الدين الجديد وأحكامه ومفاهيمه جليةً واضحة في الأذهان والنفوس لا لُبس فيها ولا غموض ولا مجال للطعن والاتهام، ولعلّ من تلك الحكم:

﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..﴾[1].

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ...﴾[2].

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» الحديث.

نسب شريف لم تجد قريش فيه ما تطعن على النبيﷺ، وقد أجاب

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

أبو سفيان، وهو يومئذ أشد أعداء النبي ﷺ حين سأله هرقل عن نسب النبي ﷺ فقال: هو فينا ذو نسب.

لقد كانت أمة رسول الله ﷺ أقل أمم ذلك الزمان حضارة ومدنية فهم قوم أميون كما وصفتهم الآية:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١).

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢).

بل شاء الله أن يكون رسوله محمد بن عبد الله ﷺ لهذه الأمة الأمية أمياً أيضاً.

﴿مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٣).

كل هذا جاء تأكيداً لحكمته تعالى ودفعاً لمزاعم قد تثار و تنطلي على كثير من الناس وتصدّق بها نفوسهم فتكون مبرراً تحتجّ به فتبعدهم عن الهدى والخير..

وحقاً لو كانوا أمة قارئة متعلّمة متحضرة تعرف المدنية وأصولها والحضارة ومعالمها كما هو عليه حال كل من اليونان والفرس والرومان وربما هناك غيرهم وهم أهل حضارات مجاورة لهم، لوقع الارتياب ولقال قائلهم:

إن ما حدث لهذه الأمة من تغيير وحمل الرسالة وما يترتب على ذلك هو نتيجة تأثر علمي واحتكاك ثقافي وانفعال حضاري مدني..

إن الأخلاق القيمة التي أشرنا اليها كالوفاء بالعهد وعزة النفس ومضاء العزيمة، لم تكون معروفة عند الأمم المجاورة لها وإن عظمت حضارة وتقدماً، وهي أخلاق

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) العنكبوت: ٤٨.

تحتاجها تلك الأمانة السماوية ومسيرتها وتبليغها وأيضاً قيادة الأمة ، فبدون هذه الخصائص لا يمكن لأي أمة أن تحمل أمانة أو تتحمل مسؤولية حتى سادوا الدنيا بأخلاقهم قبل سيوفهم .. وهو ما جاء به رسول الله ﷺ وطالما افتخر واعتز ﷺ بمشاركته في تعزيز كل مبادئ الحق وإقرار مكارم الأخلاق ، فقد شهد ﷺ حلف الفضول وكان عمره عشرين سنة ، لأنّه رأى فيه قيماً ومبادئ سامية .. ويأتي الحجر الأسود وقصته عند تجديد بناء الكعبة ، وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين؛ ليكون علامة مضيئة على حبّ هذه الأمّة للصدق والأمانة رغم ما تتصف به من فساد أخلاقي ، ويكشف عما وصل إليه النبي ﷺ من منزلة عظيمة بين قومه ، فقد اختلفت قريش فيمن يستأثر بشرف وضع الحجر الأسود في مكانه فاتفقوا ـ بعد أن كاد السيف يقع بينهم فيدميهم ويمزقهم ـ على تحكيم أول داخل من بني شيبة ، فدخل رسول الله ﷺ وعمره ٣٥ سنة ، فلما دخل هتفوا جميعاً: إنه محمد بن عبدالله .. إنه الصادق الأمين . وبصوت واحد: هذا الأمين قبلناه حكماً بيننا .. هذا الصادق رضينا بحكمه .. فأمر بثوب فأخذ الحجر ووضعه في وسطه ، و أمرهم جميعاً برفعه ، ثم أخذه بيده الشريفة فوضعه مكانه ، فحقن بهذا الدماء من أن تراق وحفظ الأرواح من أن تزهق ، ووحّد بهذا صفهم وأشعرهم بقيمة وحدتهم!

الاختيار والبشرى!

وفعلاً تحققت البشرى ووقع اختيار السماء لهذه الأمة أن تكون حاضنةً للنبوة والرسالة الخاتمة والإمامة ، فغدت الأمة المختارة .. وغدا محمد بن عبد الله ﷺ النبي المصطفى والرسول الخاتم والإمام المختار ..

لقد أرسلت السماء محمداً ﷺ رسولاً ونبياً وهادياً ومرشداً وموحداً لمثل هؤلاء العرب ولمثل تلك الأمة ، ليعلمهم معنى الحياة وتطورها على كل الأصعدة المعنوية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية .. وليبث فيهم الحياة الجميلة التي ترتضيها لهم السماء .. الحياة الخالية من الكراهية ، المليئة بالحب ..

البعيدة عن الرذيلة والفرقة والنزاع والتسلّط والظلم ..

وأوجد فيهم منابع للتسامح والمحبة والصبر والتحمل وكظم الغيظ حتى وهم يخوضون غمار الحرب ، وراح يبث فيهم تعاليم صارمة ترفض وتشجب الفساد والإتلاف ونقض المواثيق والعهود، وتدعو إلى عدم انتهاك الحرمات وعدم التمثيل بالقتلى، وعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعدم قطع النخل والشجر أو حرقه، وعدم تهديم الدير والكنائس ، وعدم التعرض للرهبان و المشغولين بالعبادة. ولم يلجأﷺ إلى القتال إلا اضطراراً ، ولم يتجاوز عدد القتلى بضع مئات...

كما راح يعلّمهم ويدربهم على ضبط النفس وقوة الانضباط إلى درجة جعلهم يقيمون الصلاة في ساحات الوغى و القتال ليتعلموا الصبر والالتزام والطاعة وليتزوّدوا السمو والرفعة والتعالي على الأذى والجراح والقروح التي يتعرضون لها حتى وسط غبار العواصف والقتال.. لقد أمرهم في تلك الأوقات العصيبة بالصلاة لله تعالى جماعةً لا فرادى ، وكلما حان وقت الصلاة وهو يحين خمس مرات في كل يوم يجب ألا تترك أو تؤجل صلاة الجماعة ، فينبغي أن تصلي طائفة فتركع وتسجد بين يدي ربها بينما تشتبك الأخرى مع العدو ، فإذا قضيت الصلاة فينبغي أن تغيّر كلتا الطائفتين موقعها:

﴿وَ إِذٰا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاٰةَ فَلْتَقُمْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذٰا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرٰائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طٰائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ ...﴾[1] .

إن في سيرتهﷺ الكثير الكثير من الأمثلة السامية نجدها واضحةً في حياته الكريمة ، وهنا نقف عند شيء منها ، ففي معاملتهﷺ لألدّ أعدائه؛ نجده وهو في أوج قوّته عند فتح مكة، قريته التي آذاه أهلها واضطهدوه وقاطعوه وعذبوا أنصاره

(١) النساء: ١٠٢.

وأخرجوهم بقسوة حتى حينما لجأوا إلى يثرب .

وإذا ما اطلعنا على بعض ما تعرض له المسلمون الأوائل سنجد المعاملة الوحشية للرجال والنساء الأبرياء؛ فقد مزقوا بقسوة سميّة تلك المرأة البريئة كل ممزق ، بالطعن في موضع العفة بالحراب. أما زوجها ياسر فقد شدوا ساقيه إلى ناقتين وسيقتا في اتجاهين متعاكسين .. وبلال هو الآخر عرضوه لأبشع صور العذاب على رمضاء مكة الملتهبة ..وهكذا خباب بن الأرت الذي جعلوه على سرير من الجمرات المحترقة وظلّ الطغاة عديمو الرحمة يركلونه بأرجلهم وجثموا بوحشية فوق صدره لينصهر الشحم تحت جلده. وهكذا غيرهم حاصروهم وضيّقوا عليهم وعذبوهم بطرق وحشية ومثلوا بأجسادهم وانتهكوا حرمتهم... هذا إضافة إلى ما شنّوه من ملاحقات وحروب ضدهم بعد هجرتهم وتركهم بلدتهم مكة ، وكان منها: بدر، وأحد، والخندق ...

إذن كان يحقّ له أن يثأر منهم ، حينما تمكن منهم بعد فتح مكة ، لما أنزلوه به وبأصحابه وبالمؤمنين به ، لكنه عفا عنهم وحتى عن أولئك الذين قتلوا عمّه حمزة وانتهكوا حرمة جسده ومثلوا به فشقوه ولاكوا جزءاً من كبده. أيّ معاملة قابلهم بها ! إنها معاملة قلب يفيض بفطرة حب ورحمة لا مثيل لها وهو يردد :

«يا معشر قريش! ويا أهل مكة! ما ترون أني فاعل بكم؟»

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال:

«لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهم يسمعون وينظرون إليه، ويستشعرون بما يقول ويأمر ويعطيهم أمانهم وسلامهم وحياتهم ..

وهناك أمثلة عديدة على ما كان رسول الله ﷺ يبذله لانتشال تلك الأمة من آثار الجاهلية وسيئات أخلاقها وموبقات أعمالها وينقلها إلى عالم حب وتآلف ومودة ..

الأذان الذي كان يعدّ عملاً عظيماً ويدعو للاحترام والتقدير .. لقد أعطي هذا الشرف لمن؟ إنه لبلال العبد الحبشي دون غيره من المسلمين حتى تلغى تلك الفوارق المدمرة، لقد أمره النبي ﷺ في عمرة القضاء أن ينادي للصلاة، فوقف هذا العبد الحبشي ذو البشرة السوداء والشفتين الغليظتين على سطح الكعبة المشرفة أكثر الأماكن عراقةً وقداسة وفضيلة، وما إن رأوا بلالاً يصدح بالأذان حتى صرخ عكرمة بن أبي جهل أحد العرب المستكبرين المشركين بصوت عال متألماً: لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول. فيما قال مشرك آخر: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال بن أم‌بلال ينهق فوق الكعبة. وآخرون لما سمعوه غطوا وجوههم عنفةً وكبرياء وسخرية منه ..

إنها رائحة الكبرياء والعنصرية والهوى تفوح منهم، وقد عزم رسول الله ﷺ وقرآنه المجيد على استئصالها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

لقد راح ﷺ يواكب الناس حتى بعد إسلامهم ويسددهم ويقومهم ويقتلع ما فيهم من آثار تلك الجاهلية وما تركته في نفوسهم، والإنسان ابن بيئته، ليبدلها

(١) الحجرات: ١٣.

بأخلاق إسلامية وآداب قرآنية بعيدة عن التعصب والعنصرية وطالما كان يقول:

دعوها فإنها نتنة دعوها فإنها نتنة ..

سمع رسول الله ﷺ أبا ذر حدثان إسلامه يقول لابن عمه: يا بن الأمة، فقال له ﷺ: «ما ذهبت عنك جاهليتك بعد».

وقال ﷺ: له في قضية مشابهة: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

وعودهم التعامل الطيب مع أعدائهم والرحمة بأسرائهم، فقد مرّ بلال بامرأتين يهوديتين أسيرتين على قتلى من اليهود، وما أن رأت إحداهما جثث القتلى حتى صاحت وصكّت وجهها وحثت التراب على رأسها. فقال رسول الله ﷺ له حين ورده خبر ما فعله: انزعت منك الرحمة يا بلال؟! حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما[1]!!

إنها أمثلة كثيرة، اخترت ما يحضرني منها، تنبع من تعاليم الإسلام وأحكامه وتكاليفه وكلها رحمة للعالمين ونجاة لهم من سيئات الدنيا وعذاب الآخرة، وهدفها حياة خالدة:

﴿ .. اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..﴾[2].

الحج نموذجاً حياً

ونكتفي هنا بنموذج واحد من تلك التكاليف وبما يتناسب مع منهج مجلتنا هذه التي احتلت مكانة مرموقة في عالم المكتبة العلمية والمعرفية والثقافية، وراحت تؤدي دورها في بيان أعظم الفرائض الإسلامية تربية وتهذيباً وبناء للروح الإيمانية والنفس الإنسانية والآداب والأخلاق... إنّها فريضة الحج، الدعوة الربانية العظيمة، والنداء السماوي الخالد، والمؤتمر الإسلامي الكبير،

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام، وكتاب المغازي للواقدي، عمرة القضاء، وتاريخ الطبري، غزوة خيبر، سنة ٧.

(٢) الأنفال: ٢٤.

والتظاهرة الإيمانية الرائعة، التي تضم بين صفوفها أجناساً متعددة، ومذاهب وطبقات وقوميات شتى، بزيّ واحد لا يميز غنيهم عن فقيرهم ولا حاكمهم عن محكومهم ولا أبيضهم عن أسودهم ... إنه زي موحد قطعتا قماش أبيض اللون غير مخيط يأتزر الرجل بأحدهما حول سوءته، فيما يرتدي الأخرى فوق كتفيه، حاسر الرأس في غير خيلاء ولا تكلف، مردداً نداء واحداً:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».. إنهم جميعاً على موعد واحد، وواد واحد، وحرم واحد، وبيت واحد، ومنسك واحد ...

إن عالمنا ـ كما العوالم السابقة واللاحقة ـ يشاهدون في كل عام في موسم الحج مشهداً رائعاً واستعراضاً عظيماً للإسلام الموحد، بعيداً عن فروقات الجنس واللون والمكانة... عبر صف واحد يشد بعضه بعضاً، وأسرة ربانية واحدة ترفرف عليها رحمة السماء .. وكلهم مدعوون ﴿.. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ...﴾.

منافع دنيوية ومنافع أخروية مفتوحة لهم أبوابها ينالها كل واحد منهم بقدر إخلاصه وصدقه ..

إن الحج محراب عبادة ما أعظمه! وميدان وحدة وأخوة وتعارف ومسؤولية ما أروعه! وموسم خير وتجارة ما أنفعه!